العولمة وهمٌ أم حقيقة ؟ رؤية تأملية

الأستاذ الدكتور مها عيسى فتاح العبد الله

قسم الفلسفة / كلية الآداب / جامعة البصرة

المستخلص

إبتداً أودُ أن أنوه إلى ما يأتي :

أولاً : ما سأتحدث عنه هو ليس ترويجاً للعولمة أو دفاعاً عنها ولا هو إستخفافٌ بها . إنما هو رؤية تأملية تأويلية لا أُ صادرُ بها حقَ الآخرين ، وبصورةٍ خاصة ما ينتابهم من قلقٍ ومخاوفٍ أومن إطمئنانٍ لها ورغبةٌ في قبولها ، فأنا جزءٌ من هذا العالم وهذا العالم هو ليس عالمي وحدي إنما هو عالمٌ يُشاركُني فيه الجميع : الإنسان الحيوان ، النبات والجماد .

وثانياً : أنطلقُ في ما سأتحدث عنه من الفلسفة لأن الفلسفة تعلمنا : الدقة ، الوضوح ، العمق (أي إننا لا نُسطحُ المسائل).

أحاول في هذه الدراسة الحاضرة أن أتوقف أولاً عند المواقف من العولمة ، وهي كما لا يخفَ على أحدٍ مواقفٍ متنوعة ومختلفة ومتعارضة في أحيانٍ كثيرة . وثانياً أحاول في دراستي هذه الوقوف عند المخاوف التي تشعر بها بعض المجتمعات ، ويشعرُ بها بعض المفكرين من سيادة نموذجٍ واحدٍ يُهيمنُ على العالم .

الكلمات المفتاحية: مصطلح العولمة ، تاريخ العولمة ، المفكرون والعولمة ، نماذج العولمة ، خوف العولمة.

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٢/٠٣/ ٢٨ **تاريخ القبول:** ٢٠٢٤/٠٥/٠٦

Globalization illusion or reality? A contemplative vision

Prof. Dr. Maha Essa Fattah Al-Abdullah
Department of Philosophy / College of Arts/ University of Basrah

Abstract

I want to point out the following:

First: What I will talk about is not a promotion or defense of globalization, nor is it a disdain for it. Instead, it is a contemplative and interpretive vision in which I do not issue the right of others, especially their anxiety, fears, confidence, and desire to accept it because I am part of this world, and this world is not my world alone. However, it is a world everyone shares with me: man, animal, plant, and inanimate.

Second: I proceed with what I will talk about from philosophy because philosophy teaches us: accuracy, clarity, and depth (that is, we do not flatten issues).

In this present study, I try to first stop at the positions on globalization, which are diverse, different, and often contradictory positions. Secondly, in this study, I try to stand at the fears that some societies and thinkers feel of the rule of one model that dominates the world.

Keywords: Globalization, history of globalization, thinkers and globalization, models of globalization, fear of globalization.

Received:28 /03/2022 **Accepted:06 /05/2024**

المقدمة

أولاً : المواقف من العولمة :

إبتداءً أقف عند رؤية البروفيسور وعالم الإقتصاد الأمريكي روبرت رايخ (ٌRobert Reich) التي قدمها في كتابه عمل الأمم (The Work of Nations) التي أكد فيها أننا نعيش تحولاً وهذا التحول كما يرى سيضفي على اقتصاد وسياسة القرن القادم ـ أي القرن الحادي والعشرون ـ بنية جديدة . ونتيجة لهذا التحول لن يبقى هناك ما هو وطني . فلن تبقى هناك ثقافة ولا مؤسسة ولا صناعة وطنية ...الخ فكل شيء مما يمثل الأوطان سينتهي ولا يبقى منه إلا السكان الذين يقطنون في أوطانهم تلك ، وقدرتهم على الإنتاج وأنفاسهم الإبداعية .[١] إذن ستختفي كل خصوصية للأوطان و ما سيبقى هو المكان ممثلاً بالبقعة الجغرافية التي تمثل الأوطان ، والقدرة على العمل والفكر الذي يمثل الإبداع . حينما أتأمل هذا الكلام أجدُ أن ما سيبقى الكثير ، فمن يملك وطناً ولديه القدرة على العمل والرغبة في الإبداع هو من سيقبل بنتائج هذا التحول أو سيرفضها . فالفكر الذي يمثل فئة ما ضمن بقعة جغرافية محددة . مهما كان حجمها . عندما يقبل بهذا التحول ، هل سيقبل به كما هو أم بما يوافق ظروفه وقناعاته ؟ وإن رفضه فهذا يعني أنه سيتصدى له ، أي سيخرجُ عليه بإبداع مخالفٍ له .لقد اختلفت الرؤى بشأن العولمة في كل شيء .و هذا الاختلاف سببه الانتماءات الفكرية ، الآيديولوجية ، القيمية ...الخ لمن تحدثوا عن مفردة العولمة . لذا نحاول في هذه الدراسة أن نشير لبعض المواقف المختلفة والمتنوعة منها .لقد استقر مفهوم العولمة بداية في حقلي الاقتصاد والعلاقات الدولية ، ثم طال في منتصف ثمانينيات القرن العشرين فروع العلوم الانسانية وبصورة خاصة علم الاجتماع .[٢]كما يبدو أن ظهور العولمة كان في حقلي الاقتصاد والسياسة . ولا أحد ينكر تأثيرهما وأهميتها على الحياة كلها .خلافاً لهذا الموقف هناك من يرى أن العولمة في الوقت ذاته هي ظاهرة سياسية واقتصادية واجتماعية وتقنية واعلامية وانسانية ودينية ونفسية . وهنا يصبح تناولها من قبل عدد من المفكرين الذين يمثلون حقول المعرفة المختلفة مبرراً .[٣] كما يبدو من وجهة النظر هذه أن العولمة قد شملت حقول المعرفة كلها ، أي أنها قد طالت كل شيء . ولكونها عملية شاملة على الصعيد الكوني فقد شملت مجالات الحياة كلها : سياسية ، ثقافية ، تقنية ... اسلوب الحياة ، نماذج الاستهلاك ، نماذج التفكير، لذا فهي تمارس بهذا عملية إزالة لجميع مضامين حياة المجتمعات وثقافاتها .[٤] لقد أثارت مفردة العولمة اهتمام عدد من المفكرين في حقول المعرفة المختلفة ، فتحدث رجال الاقتصاد، السياسة ، الفلسفة ، علماء الاجتماع ، والاعلاميون وغيرهم عنها والسبب في ذلك كما يرى بعض المفكرين هو أن قضية العولمة تمتلك ما يثير كل هؤلاء.[٥] ركز بعض المفكرين على جانبٍ واحدٍ ، الجانب الاقتصادي أو السياسي ...الخ لمفردة العولمة . هذا الإهتمام من قبل الباحثين في

حقول المعرفة المختلفة بالعولمة هناك من يرى أنه قد أسهم في صعوبة فهم قضية العولمة.[٦] وهناك من يرى أن العولمة تفرض نفسها ، وبصورة خاصة على الوسط الثقافي والفكري والدليل على ذلك يكمن في عدد الكتب والندوات والمقالات التي تتناولها بالدرس والتحليل ، إضافة للمنتديات والملتقيات الرسمية والتي تتمثل بمنظمات وحكومات ، وهذا كله يعمل على إيجاد فرصة مناسبة لدراستها ومعالجتها لمعرفة كيفية التعامل معها واستثمارها والانضمام اليها .[٧] لقد بدأت العولمة منذ القرن السابع عشر أو قبله بقليل مع ظهور الاستعمار الغربي لآسيا وأفريقيا والأمريكيتين . وهذا يعني أنها كظاهرة ليست جديدة إذا اقترن ظهورها بتطور النظام التجاري الحديث في أوربا .[٨]يشير المفكر محمود أمين العالم إلى أن مصطلح العولمة هو تعبير عن ظاهرة تاريخية موضوعية .... تشكلت بداية في الأنظمة الاقطاعية في أوربا في القرن السادس عشر الميلادي ، واتصفت بنموذج جديد من الانتاج وهو الانتاج الرأسمالي الذي انتشر داخل أوربا وخارجها بحكم طبيعته التوسعية التنافسية ليشمل كل أرجاء المعمورة .[٩] أقفُ حقيقة من كم المؤلفات الهائل والنصوص المختلفة . التي أصابتني بالفوبيا . للعولمة متسائلة هل تستحق هذه المفردة . كما أسميتها أنا . كل هذا الاهتمام ؟ هناك من يقول مصطلحُ العولمة ومن يقول مفهوم العولمة ومن يقول قضية العولمة ومن يطلق عليها ظاهرة العولمة ... الخ بل حتى تاريخياً هناك اختلاف في وجهات النظر حول بداية ظهورها ، وحقول المعرفة التي ظهرت فيها . كما يبدو لي أن هذه المفردة بكل ما أثارته من مشكلات وتساؤلات ومخاوف غير واضحة وغير محددة في كل شيء . وتماشياً مع ما طرحه بارمنيدس وانطلاقاً من فلسفته التي علمنا إياها ، وهي إننا لا نسلم بشيء لا يمكن لنا التفكير فيه ، وليس هناك مجال للتفكير فيه . أي أننا لا نفكر بشيء غير موجود، لأن الفكر قد وجد لشيء موجود .[١٠] أي أننا كما يشير بارمنيدس لايمكن أن نفكر بشيء غير واضح ، غير محدد لأننا عندها لا نستطيع أن نحدد موقفنا منه .ثانياً المخاوف من سيادة نموذج واحد :لقد اختلفت أيضاً الرؤى بشأن هذا النموذج . الذي سيفرض على العالم . فهناك من رأى أن هذا النموذج سيكون سياسياً ، انطلاقاً من فهم العولمة بإعتبارها تمثل نموذجاً ايديولوجياً ، يعمل من يمثلونها على سيادة نظامٍ سياسي واحد، يفرض بالقوة هيمنته على العالم كله ، وهذا النظام تمثله الولايات المتحدة الأمريكية التي تحاول أن تفرض على العالم قيادة واحدة ونمط واحد من الحياة وممارساتها المختلفة : الثقافية ،السياسية، الاجتماعية ، الاقتصادية ... الخ وبهذا ترسخ الولايات المتحدة هيمنتها وزعامتها على العالم أجمع .[١١]لقد سجل لنا التاريخ أن حلم ايجاد عالم موحد يخضع بكل تفاصيل الحياة فيه للمعتدي الذي يفرض هيمنته عليه بالقوة ، هي محاولة غير مجدية . فمهما امتلك المعتدي من وسائل لفرض هيمنه على الأضعف منه سينهزم وتتلاشى أحلامه في ايجاد عالم واحد . مثال على ذلك أحلام الإسكندر المقدوني الذي حاول ابتداءً بفرض هيمنته على العالم اليوناني

الواسع لتمتد أحلامه خارج بلاد اليونان لغزو الشرق وبصورة خاصة بلاد فارس والهند وأفريقيا ، لإيجاد إمبراطورية تشمل العالم كله .[١٢] لم تتلاشى أحلام الإسكندر بفرض هيمنته وتشكيل إمبراطوريته الواسعة فقط ، بل أن فتوحاته لمدن آسيا الصغرى وسوريا ومصر وبابل وبلاد فارس والهند وغيرها أدت إلى أن تمتزج حضارة الغرب ممثلة بالحضارة اليونانية بحضارة الشرق . ونتيجة لذلك فقد شاع بين اليونانيين من جانب ما كان للشرق من حكمة وخرافات وعقائد وغيرها ، كما عرف الشرق ما لليونان من موروثٍ فكري وثقافي متنوع وعميق ، ذلك لأن الإسكندر كان يقيم المدن اليونانية في كل دولة يفتحها ويرسخ النظم اليونانية فيها ، لأنه كان يعد نفسه رسولا يبشر بالروح اليونانية .[١٣] كما أن هناك من يرى أن الهيمنة على العالم وجعله عالماً واحداً لن تكون من خلال فرض نظام سياسي تتزعم به دولة ما العالم . بل أن هناك جهوداً تبذل ليتخذ العالم صورة واحدة ، وليس هناك شك أن النتيجة النهائية لهذا النموذج أو الصورة الواحدة ـ التي ستجعل العالم واحداً ـ ستكون في المجال الثقافي .[١٤] أقف هنا متسائلة هل حقاً ستُفلح دولة ما إنطلاقاً مما تملكه من قوة من فرض نموذجٍ واحدٍ تريده على العالم ؟ كما يبدو لي ومن خلال ما عرضه لنا التاريخ الانساني أن هذا شيء محال . بل ربما سيُعلن دعاته فشله قبل غيرهم . فكما يؤكد من يرفضون العولمة أن سلبياتها ستهدم أحلامها ، طالما أن واقع تلك الدول مليء بالفوارق الاجتماعية والسياسةوالإقصاء والبطالة المرتفعة .[١٥] هذا الواقع يطرحُ سؤلاً مهماً و هو إذا لم ينجح دعاة العولمة بفرضها على مجتمعاتهم وهي جزء صغير من العالم كله يتمثل بأوطانهم ، فكيف يمكن أن يفرضوا هيمنتهم على العالم كله بفرض نموذجٍ واحدٍ؟ والسؤال المطروح هو كيف يمكن للأوطان أن تتبنى نموذجاً قد فشل في وطنه الام ؟ لو لم تكن جلجامش وإلياذة وأوديسة هوميروس تحمل كل هذه القيم الإنسانية ، التي انطلقت منها من قيم الحياة لإنسان وادي الرافدين والمجتمع الإغريقي ، لما أصبحت جزءاً من موروث الإنسانية كلها . إذا لم تمس النماذج عمق و وجدان الإنسان وتوافق قناعاته لا يمكن لأحدٍ أن يفرضها عليه . بل أن فرضها عليه محفوفُ بالمخاطر لأنه سيتمرد في يومٍ ما ، ومن يفرضها عليه يعلم أنه سيتمرد ذات يوم لذا سيبقى يترقب ـ بخوف ـ مجيء ذلك اليوم . كما أن فرض نموذج واحد على العالم إن لم يكن مستحيلاً فهو بغاية الصعوبة . والتاريخ الإنساني شاهدٌ على ذلك . لقد أشار الفيلسوف الألماني هيجل (١٧٧٠-١٨٣١) بجدله الذي يتألف من قضية ونقيضها والمركب منهما .[١٦] أن كل شيء يتشكل انطلاقاً من الصراع ـ الذي يمثل جدله ـ المستمر بين فكرةٍ واضحةٍ تفرض هيمنتها في الفلسفة ، السياسة ، الإقتصاد ، الثقافة ، التاريخ ...الخ ثم يظهر ما يُخالفها ، أي ما يقف ضدها ، وهذا الضد ـ أي الفكرة المضادة لها ـ يحمل أيضاً انتماءاته الفكرية ، الثقافية الوجدانية ...الخ ويستمر الصراع بين الإثنين ، حتى تأتي المرحلة الأخيرة ـ وهي مجرد تحصيل حاصل ، أي لابد من حدوثه ، لأن هذا الصراع لابد أن يفرز شيئاً

مختلفاً. وهي مرحلة تشكل نموذج جديد مركب يجمع بين الضدين (الفكرة ونقيضها) .لقد فسر هيجل العالم أو أية ظاهرة تحدث،داخل هذا العالم وفقاً لجدله الذي ينطلق من فكرةٍ ثم تتشكل فكرة مضادة لها ، وفي نهاية الأمر تُنحى الفكرتان لتسمحا بانبثاق فكرة ثالثة تمثل المركب منهما ، فيكون هذا المركب الجديد أكثر شمولاً من الفكرة ونقيضها.[١٧] سيستمر بين الغالب والمغلوب ، بين القوي والضعيف ،وسيفرز هذا الصراع في نهاية الأمر مركب يحمل قيم النموذجين . هذا ما حدث وما سيحث فكل شيء في حالة تغير دائم . فلا أحد ينكر أن هناك حضارات عظيمة بنظمها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية قد انتهت ! أي أن كل شيء إلى انتهاء . دائماً كنت،ولا أزال أتساءل . حينما أقف على إنجازات تلك الحضارات .كيف انتهت تلك الحضارات ، كيف انتهى وجودها ؟ لكنني دون شك أعرف أنها قد انتهت ، فواقعياً لم يعد لها وجود ! لذا أنا مطمئنة أن المشكلات التي أفرزتها هذه الحضارة ومنها مفردة العولمة وهذه الحضارة كلها ستنتهي ، قد تنتهي وأنا موجودة فيها ، وربما لا أكون موجودة فيها . وبالتأكيد لا أعرف متى ستنتهي ! لكنني واثقة أنها ستنتهي ،لأن الطبيعة تُخبرنا كل يوم أن كل شيء في حالةِ تغيرٍ دائم . فمهما أحببت الشتاء فهو مغادر ، ومهما تمسكت بالربيع فهو راحل ، ومهما كرهت الصيف فهو مغادر ، ومهما عشقت الخريف فهو راحل .

الهوامش

١- Robert Raiech : The work of Nations,New york ,1991,p 3.

٢- فالح عبدالجبار : معنى العولمة (العولمة والهوية الثقافية) [سلسلة أبحاث المؤتمرات الـ (٧) ،المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ص ٤٩ .

٣- ناهد طلاس العجة : العولمة محاولة في فهمها وتجسيدها ، ترجمة هشام حداد ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، ط١ ،٢٠٠٢ ، ص ٨ .

٤- هاني الحوراني : الثقافة العربية والتعددية في ظل العولمة ، سلسلة المؤتمرات الـ (٧) ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة, ص ٤١٩

٥- هانس بيتر مارتن ، هارالد شومان : فخ العولمة ، ترجمة ، عدنان عباس علي ، مراجعة وتقديم أ .د. رمزي زكي ، عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٩٨ ، ص ٨ .

٦- المرجع السابق ، ص ٨ .

٧- محمد شوقي الزين : إزاحات فكرية مقاربات في الحداثة والمثقف ، منشورات الاختلاف ، الجزائر، الدار العربية للعلوم ، ناشرون ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٨ ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

٨- عواطف عبدالرحمن : الإعلام المعاصر وتحديات العولمة (العولمة والهوية الثقافية) [سلسلة أبحاث المؤتمرات (٧)] ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ص ٨٠٤ .

٩- محمود أمين العالم : العولمة والهوية الثقافية ،[سلسلة أبحاث المؤتمرات الـ (٧)]، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ص ٣٧٧

١٠- John Burnet: Early Greek philosophy , Forgotten Books ,2012 ,p 205

١١ -هاني الحوراني : الثقافة العربية والتعددية في ظل العولمة ، ص ٤٢٠ .

١٢- ناهد طلاس العجة : العولمة محاولة في فهمها وتجسيدها ، ص ١٨ .

١٣- انظر برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ترجمة زكي نجيب محمود ، مراجعة المرحوم د. أحمد أمين ، لجنة في التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، الجزء الثالث ، ١٩٦٧ ، ص ٣٤٩ ، ٣٥٠ .

١٤- هانس بيتر مارتن ،هارالد شوفان : فخ العولمة ، ص ٤٤ .

١٥- محمد شوقي الزين : ازاحات فكرية مقاربات الحداثة والمثقف ، ص ٦٢ .

١٦- برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، الكتاب الثالث (الفلسفة الحديثة) ، ترجمة د. محمد فتحي الشنيطي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٣٥٤ .

١٧- د. جون لويس : مدخل إلى الفلسفة ، ترجمة أنور عبدالملك ، الدار المصرية للكتب ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ١٦٣ .